الصغيرة عموما ، وطبيعة البرجوازية العربية الصغيرة خصوصا ، والفلسطينية على الاخص . ولم يدر في خلدنا يوما ان النضال الفلسطيني سليم ومعافى ، وان البرجوازية الصغيرة ستقوده الى شاطىء السلامة . ولذلك قررنا ان نكون مع الجماهير ، وانتقلنا الى صفوفها ، لنقاتل معها ، ولنتعلم منها ، ولنحرضها على مزيد من النضال ، ونكتسب منها الصبر والصلابة والوضوح . وكان منهجنا يقوم على : استخدام معرفتنا لتحليل الواقع، ثم اختبار هذا التحليل عن طريق الممارسة. ولذلك كنا نرفض الافكار « ما فوق الماركسية » ، و« ما فوق الحمراء » ، ونرفض ميتافيزياء يساريي الكتب والمقاهي رفضا قاطعا ، كما كنا نرفض ايضا غيبيات البرجوازيين الصغار ومثالياتهم . وهذا ما جعلنا نقف موقفا نقديا من البرجوازيين الصغار كلهم : الذين رفعوا راية ميتافيزياء الماركسية والذين رفعوا راية ميتافيزياء الافكار البرجوازية الصغيرة . وكنا نعلم ان هذه وتلك اوهام البرجوازية الصغيرة .

ب — كان موقفنا منذ البدء ، وبعد ان استوعبنا مبادىء المعرفة العلمية ، يتلخص بالتالي : الممارسة والتعلم من الممارسة ، النضال والنقد ، النقد لخدمة الممارسة ولخدمة خط الجماهير ، كشف الاوهام من خلال الممارسة وزرع الافكار السليمة خلال الممارسة . ولذلك كنا نرى ان الاوهام لا يمكن ان يسقطها الا مناضلون يملكون الخط السليم ، وان الافكار الصحيحة لا يمكن ان تنمو الا عبر الممارسات الصحيحة ، وعبر جو الجماهير لا في أوساط النخبة .

ولم نكن نعتبر ان هذه مهمة قابلة للتحقق بسرعة . كنا نراها مهمة طويلة تحتاج الى سنوات من العرق والالم والتأمل والممارسة . وكنا نعلم ان انتصار الخط السليم لن يكون نتاج كتابة « الوصفات الثورية » ، ولا نتاج « الطهر الثوري » و« الاحلام الثورية » بل نتاج التجربة العملية والممارسة العملية ، مع الجماهير ، وعبر كل تعقيدات الواقع والتواءات الحياة الانسانية .

ولهذا لم نخف البرجوازية الصغيرة ، ولا خشينا ان تلوثنا مباذلها ، ولا أن تخدعنا افكارها . لم يكن امامنا مجال غير العمل معها ، ضمن ظروف الحركة الوطنية العربية خلال العشرين سنة الماضية . وكنا لا نريد ان نصنع لانفسنا تصورا ثورية نقبع فيها ، ونطلب توزيع البسكويت على الجماهير المطالبة بالخبز من نوافذها . ولكنا ، وخلال كل حياتنا السياسية منذ اوائل الخمسينات ، ونحن نصارع تيارات البرجوازية الصغيرة ، سيان كان ذلك في الاحزاب التي انتمينا اليها ، او خارج اطار هذه الاحزاب .

ومنذ أن نلنا شرف عضوية فتح والثورة الفلسطينية ساهمنا بجهدنا المتواضع في النضال ضد الاعداء وضد الاخطاء ، وكنا دائما نناضل ونحن وسط الجماهير ، ونتخذ مواقف واضحة ، وننتقد من خلال استنباط خط الجماهير . ولما كانت الاطر التنظيمية ليست ضمانة ، كنا نصر على ان ننقل النقد الى الجماهير . وكتابي « الثورة الفلسطينية: ابعادها وقضاياها » حزيران ١٩٧٠ ، مثل كتاب منير شفيق : « التناقض والممارسة في الثورة الفلسطينية » نوع من النقد العلني لكل افكار البرجوازية الصغيرة ، وبكل قياداتها « ماركسية » وغير ماركسية . ثم ان دراساتنا ومقالاتنا وندواتنا وكتبنا كرست لخدمة هذا الغرض . وهنالك ايضا ما كتبناه بلا أسماء ، وفي صحف ومجالات مختلفة ، وما طرحناه في جلسات سرية .

ولكنا لم نكن مثل صادق ومدرسته في هذا كله ، نثبت كل شيء او ننفي كل شيء ، كما يقول ماو تسي تونغ ، لان الجدل لا يعلمنا هذا الاسلوب الميتافيزيائي . لقد كنا نحاول ان نرى الصورة بكل جوانبها ، والالوان بكل اختلافاتها ، ولم نكن نريح أنفسنا وراء شعارات وكليشهات وافكار طوباوية. هذا كان منهجنا وما زال . ولا يعني هذا أننا لم نخطىء . فقد أخطأنا ، ولا نخاف مناقشة أخطائنا أمام الناس ، لاننا واثقون من صحة منهجنا . ولكنا لم نخطىء مرة واحدة بالوقوف ضد خط الجماهير ، ولا وقفنا مرة واحدة في الابراج العاجية نتهكم على المقاتلين والشهداء ، ونسخر من عفوية الجماهير . وكل خطأ ارتكبناه كان نتيجة عدم معرفة خط الجماهير ، وعدم التعلم منها بتواضع اكثر .

ج — وكان موقفنا ، فيما يتعلق بالاردن واضحا منذ البدء . لقد عشنا مع الجماهير في الاردن ، وعرفنا كل أشكال القمع والبطش والتنكيل . وتربينا وسط شعور جماهيرنا بخيانة النظام العميل في عمان ، وعشنا منذ ١٩٤٩ تآمره وخيانته . ولم نكن من المنظرين الذين عاشوا بعيدين عن الاردن وجماهيره. وكنا فوق هذا نعي الدور الرجعي العميل الذي